أقضى القضاة الماوردي

أقضى القضاة الماوردي

أعـلام الفقهـاء

أقضى القضاة الماوردي

في شوارع البصرة وفي زمن العباسيين، كان هناك طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، ورث عن أبيه صناعة (ماء الورد) يقضي النهار كله أمام أبواب المساجد، يبيع ماء الورد لطلاب العلم ورواد المدارس مقابل دراهم معدودة، يتقوَّى بها على متاعب الحياة.

وقد أصبح هذا الصبي من قادة الفكر وحملة مشاعل العلم ومن أبرز رجال السياسة، وقاضيًا من أعدل القضاة، وأديبًا ناضجًا ومؤلفًا عظيمًا في شتى فروع ثقافة أمته.. إنه (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) الشهير بالماوردي.. ولد عام 364هـ - 974م في مدينة البصرة، ونشأ فيها يسقي طلاب العلم ماء الورد، ويرتوي من علم العلماء المشهورين في زمانه، وظل في البصرة حتى سمع أن عالمًا ببغداد يقصده الطلاب من كافة الأنحاء هو (أبو حامد الإسفراييني) فتعلم على يديه الفقه والعلوم الشرعية، وأصبح من مريديه، ومازال يرحل ويتنقل في بلاد المسلمين طلبًا للمعرفة حتى عاد إلى بغداد، ليبدأ فيها رحلة الدرس والتأليف، يتلقى عنه الطلاب القادمون من بلاد كثيرة. وتولى الماوردي القضاء في البلاد التي رحل إليها، كما تولى وظيفة قاضي القضاة في نيسابور، وذاعت شهرته، ولقب بأقضى القضاة سنة 429هـ، وكان أول من لقب بذلك في تاريخ الإسلام، وعلم الماوردي أن توليه القضاء ليس تشريفًا له، ولكنها رسالة وأمانة في عنقه؛ فكان يتمهل قبل أن يصدر أحكامه، ويقرأ كتاب الله وأحاديث رسوله، حتى لا يضل الطريق؛ فيقضي بحكم فيه ظلم لأحد، كما كان جريئًا عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالحق حتى على أولي القربى وأصحاب السلطان. فقد أمر الخليفة العباسي أن يلقب جلال الدين بن بويه بلقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك،

واختلف الفقهاء ما بين موافق، وغير موافق لأن هذا اللقب لا يجوز إلا في حق الله، وانحاز عوام الناس إلى رأي الفقهاء المانعين، وانتظر الجميع رأي القاضي الماوردي الذي كانت تربطه بجلال الدين البويهي صلة ود وصداقة؛ وظهرت شجاعة الماوردي، فانحاز إلى جانب الحق، وضرب مثلاً فريدًا في الثبات على الحق، فأفتى بالمنع، وأعجب جلال الدين بصدقه وشجاعته فقال له: (أنا أعلم أنك لو حابيت أحدًا لحابيتني، لما بيني وبينك من أواصر المحبة، وما حملك إلا الدين، فزاد بذلك محلك عندي). ولما ذاعت شهرة الماوردي أثناء فترة إقامته ببغداد لما عُرِفَ عنه من فضل وعلم، وحسن رأي، وجلالة قدر؛ اختير ليكون سفيرًا بين رجال الدولة في بغداد، وبني بويه في أصبهان من سنة 381هـ/ 991م إلى 422هـ/ 1030م، وكان لقربه من الحياة السياسية في عصره، واختلاطه بالأمراء والوزراء أثر كبير، فقام بكتابة العديد من المؤلفات السياسية الرائعة التي صدرت عن خبرة كبيرة ودراسة واسعة مثل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وكانت له مكانة ممتازة عند الأمراء والملوك في عصره، فكان يتصدر المراسم والاحتفالات الرسمية، وأسندوا إليه عقد قران الخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي السلطان (طغرلبك) سنة 448هـ. واشتهر الماوردي بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال غيره، كما عرف عنه التدين والتنزه عن اللهو والهزل، وشهد المعاصرون للماوردي بالصلاح والتقوى، وهم محقون في ذلك، فقد أخفى مؤلفاته عن الناس في عصره خوفًا من أن يكون قد خالطها الرياء وهو يؤلفها، وعهد إلى صديقٍ له ألا يظهرها إلا بعد وفاته، وترك الماوردي العديد من المؤلفات منها: كتاب في التفسير و(الحاوي) في الفقه الشافعي و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(أدب الدنيا والدين). والماوردي مفكر سياسي إسلامي يعد من أوائل من اهتموا بعلم السياسة وأصول الحكم الإسلامي، يأخذ أفكاره وآراءه من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظل

الماوردي في خدمة العلم إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة 450هـ، وحضر جنازته جمع من الخطباء والعلماء والقضاة يودعونه إلى مثواه الأخير [1].

قال محمد بن عبدالملك الهمذاني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي عزاء، فتكلم الشيخ أبو إسحاق واجلاً، فلما خرجنا، قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق! لو رآه الشافعي لتجمل به[2].

الماوردي وآثاره:

كان الماوردي ذا خلق ودين وله علاقة وطيدة مع الخليفة ورجال الدولة في زمانه. وكان الخليفة يثق فيه وجعله سفيراً بينه وبين بني بويه وبينه وبين السلاجقة، وكانت بيد هؤلاء مراكز القوة في الدولة، ولقد أهلته ثقافته العالية ووظائفه المتعددة واتصاله برجال السلطة عن قرب وخبراته السياسية للكتابة في الفقه السياسي. وله مؤلفات في كثير من العلوم وله من الكتب السياسية أربعة كتب:

1 - الأحكام السلطانية.

(1) تاريخ بغداد 12 / 102 - 103، طبقات الفقهاء للشيرازي: 131، الأنساب: ورقة 504 أ، المنتظم 8 / 199 - 200، معجم الأدباء 15 - 52 - 55، الكامل لابن الأثير 9 / 651، اللباب / 156، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق: 24، طبقات ابن الصلاح: الورقة 70 ب، وفيات الأعيان 3 / 282 - 284، المختصر في أخبار البشر، دول الإسلام 1 / 265، العبر 3 / 223، ميزان الاعتدال 3 / 155، تتمة المختصر 1 / 549، مرآة الجنان 3 / 72 - 73، طبقات السبكي 5 / 267 - 285، طبقات الأسنوي 2 / 387 - 388، البداية والنهاية 12 / 80، طبقات ابن قاضي شهبة: ورقة / 23 / أ، لسان الميزان 4 / 260 - 261، النجوم الزاهرة 5 / 64، طبقات المفسرين للسيوطي: 25، طبقات المفسرين للداوودي 1 / 423 - 425، مفتاح السعادة 1 / 322، طبقات ابن هداية الله: 151 - 152، كشف الظنون 1 / 19، 45، 140، 168، 408، 628 و 2 / 1101، 1315، 1978، شذرات الذهب 3 / 285 - 287، روضات الجنات: 483، هدية العارفين 1 / 689.

(2) السبكي، طبقات الشافعية، 4 / 227.

2 - قوانين الوزارة.

3 - نصيحة الملوك.

4 - تسهيل النظر وتعجيل الظفر (في سياسة الملك).

وقد نال كتاب الأحكام السلطانية شهرة واسعة وهو يعد بحق أول من جمع مسائل الفقه السياسي المنثورة في مواضع متفرقة في كتاب واحد. ويقول عن ذلك في مقدمة كتابه:

(لما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتاباً) [1].

وقد ألف الكتاب بأمر من خليفة العصر فالكتاب بذلك ليس كتاب فقه نظري بل هو موجه للسلطة الحاكمة للعمل به وتنفيذه.

يبدأ الكتاب بإعطاء تعريف للإمامة والمؤهلات المطلوبة لتقلد هذا المنصب الهام، والطرق الصحيحة لانعقاد الإمامة، ثم يبين واجبات الدولة وواجبات الشعب نحوها والأمور التي تؤدي إلى عزل الإمام. وبعد أن يعطي تعريفاً لكل من الوزارة والإمارة يتحدث عن أنواع الوزارة والإمارة وسلطات كل نوع والمؤهلات المطلوبة لتوليها، ثم ينتقل لمناقشة المهام التفصيلية لأجهزة الدولة المالية والقضائية والعسكرية.

والكتاب الثاني من كتب الماوردي السياسية هو كتابه (قوانين الوزارة) وهذه رسالة هامة تبحث في موضوع متخصص من موضوعات الفقه السياسي. فقد بحث المؤلف فيها كل ما يتصل بالوزارة من فقه، ابتداء من تعريف الوزارة وأنواعها، ومؤهلات الوزراء إلى علاقتهم برئيسهم ووظائفهم وما يعينهم من سياسة للقيام بهذه الوظائف. وانتهى في هذه الرسالة إلى أن أهم غايات الوزارة تحقيق الهداف التالية: (دين متبع،

(1) الأحكام السلطانية ص 3.

سلطان قاهر، عدل شامل، أمن عام، وخصب دائم).

أما كتابا الماوردي الآخران (نصيحة الملوك) و(تسهيل الظفر) فهما كتب الآداب والأخلاق السياسية ولا تدخل في نطاق الفقه [1].

الماوردي والجواري يلبسن الشعر:

قال الماوردي: رأيتُ جاريةً، ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة، لم أشكّ أنه عاشقٌ لها، وإليها مائلٌ، لِما رأيتُ من حركاته إذا نظرت، وسُروره إذا نطقت، وتهلُّله إذا غنّت. وكانت فوق وصف الواصف من الحُسن والجَمال، وعليها قميصٌ موشَّحٌ، ورداء معيَّنٌ، مكتوبٌ في وشاح القميص:

أغيب عنكَ بودٍّ لا يُغيّرُهُ ::: نأي المحلّ ولا صَرفٌ من الزمنِ
تعتلُّ بالشُّغل عنا ما تُكلّمنا ::: الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

وعلى طراز الرداء:

أقلّ الناس في الدنيا سُروراً ::: محبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ

قال: ورأيتُ جارية لبعض الهاشميين يُقال لها عَريب، عليها قميصٌ ملحَمٌ، موشَّحٌ بالذهب، مكتوبٌ في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً ::: وأقضي على قلبي له بالذي يَقضي
فحتى متى رَوْحُ الرضى لا ينالني ::: وحتى متى أيام سُخطِكَ لا تَمضي

وعلى طراز كُمّه:

إذا صدّ من أهوى وأسلمني الغَري ::: ففُرقة من أهوى أحرُّ من الجمرِ

ورأيتُ على ماجِنَ جارية مكاتم المغنّية قميصاً في وشاحه بالذهب:

زَفَرايَ ليس تَفنى ::: وفؤادي بك مُضنى
أترضاكَ وأُبدي ::: لك... سنا

(1) القاضي أبو يعلى الفراء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص 516 وما بعدها.

بـــــأبي كـــــم أتمنّـــــى ::: وإلى كـــــم أتمـــــنى
بعـــــدما أصـــــبح قلـــــبي ::: في يـــــد الأحـــــرار رَهنـــــا

قال: ورأيتُ في صدر قميص جارية تَباريح الكوفية مكتوباً بالفضة والذهب سطراً وسطراً:

يا فتى! قلـــتُ إذ دعـــاني هـــواه ::: مســـتجيباً لصـــوته لبّيكـــا
مـــا بكـــت مُقلـــتي لفقْـــدك إلا ::: جَزَعاً أن أمـــوت شـــوقاً إليكـــا

قال: ورأيتُ مرة أخرى عليها دُرّاعَة ملْحَمٍ بتَرانين إبريسَم ولِبنة سوسَنْجرْد وفي دور اللّبنة مكتوبٌ:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا! ::: أمسك عليكَ فإنّ السهم قد قـــتلا
أصبتَ أسودَ قلبي إذ رمَيتَ فـــلا ::: شُلّت يمينُـــك أن صَـــيّرتني مَـــثلا

وكتبت بَنان جاريةُ الخيزران على تَرانين دُرّاعةٍ لها بذهب:

لم تقُـــلْ قـــولاً ولكـــن حلفـــت ::: أنهـــا أحســـنُ عـــينٍ أُطرفـــت
زعمَـــت أني قـــد لاحظتُهـــا ::: أيُّ عـــينٍ لحَظَـــت فاعترفـــت
أظهـــرت حُجّـــة مـــن يعشـــقها ::: واســـتباحَت غفلـــةً وانصـــرفَت

وعلى طراز كُمّها:

لـــيس بي صـــبرٌ ولا بي جَلَـــدٌ ::: قد نفـــى حُبُّـــكَ عـــني جَلَـــدي

وقال الماوردي: رأيتُ جارية لبعض ولد المأمون، وعليها قَلنسوة عليها مكتوبٌ:

يـــا تـــارك الجســـم بـــلا قَلـــب ::: إنْ كـــان يَهـــواكَ فمـــا ذنـــبي؟
يـــا مفـــرَداً بالحُســـن أفـــردتَني ::: منك بطـــول الشـــوق والكَـــرْبِ

وعلى كَرزَن لها:

أنـــا العبـــد المقـــرّ بطـــول رقٍّ ::: وليس عليك من عبـــدٍ خِـــلافُ

قال: ورأيتُ على جارية لا هي كَرزَناً مكتوباً عليه:

عذّبـــــه بـــــالهجر مـــــولاه ::: وزاده شـــــوقاً وأضْـــــناهُ

فدمعــــه يجــــري علـــى خـــدّه ::: ولم تـــــنمْ للوَجــــــد عينـــــاهُ
قد كتـــب الحُـــبُّ علـــى قلبــه: ::: مُـــــتْ كمَــــــداً يرحمُــــك اللهُ

مكتوباً على النعال والخِفاف:

مـا وجـد للمتظرفـات والظـراف مكتوبـاً علـى النعـال والخِفـاف قـال الماوردي: كتبَت جاريةٌ للمارقي على نعلها بالذهب:

لم ألــقَ ذا شَــجَنٍ يبــوح بحبــه ::: إلاّ حســـبتُكَ ذلـــك المحبوبـــا
حذَراً عليكَ وإنــني بــك واثــقٌ ::: أنْ لا ينال سوايَ منكَ نصـــيبا[1]

كتاب المنصور:

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم، فقال حدث منهم وهو يضرب:

أطــــال الله عمــــرك في صــــلاحٍ ::: وعـــــز يـــــا أمــــير المؤمنينـــــا
بعفـــوك نســـتجير فـــإن تجرنـــا ::: فإنّـــــك عصـــــمةٌ للعالمينـــــا
ونحـــن الكـــاتبون وقـــد أســـأنا ::: فهبنـــــا للكـــــرام الكاتبينـــــا

فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه [2].

خطوط العلماء في الأغلب رديئة:

وقال الإمام الماوردي: خطوط العلماء في الأغلب رديئة لاشتغالهم بالعلم حتى قال الفضل ابن سهل: من سعادة المرء رداءة خطه أي لئلا يشغله تعلم الخط عن تعلم العلم. قيل: والأسباب المخلة بالخط ثمانية: إسقاط ألفاظ منه أو زيادة ألفاظ فيه أو إسقاط بعض حروف الكلم أو زيادة حروف أثناءها أو وصل المفصول أو فصل الموصول أو تغيير الحرف حتى يشتبه حرف

(1) الوشاء، الموشى، ص 76، 77، 81.
(2) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص6.

بغيـــره
أو ضعف الخط جملة أو إهمال النقط أو الشكل.

لا يسأل عنهما إلاّ علماء الدين:

عن الإمام الماوردي، رحمه الله، قال: كنت بمجلس درسي بالبصرة، فدخل علي شيخ مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها، قال: قصدتك بمسألة اخترتك لها. فقلت: ما هي؟ وظننت إنّه يسأل عن حادثة نزلت به. فقال عن طالع إبليس وطالع آدم من النجوم ما هو؟ فإنَّ هذين لعظيم شأنهما، لا يسأل عنهما إلاّ علماء الدين. قال: فعجبت وعجب من في المجلس من سؤاله. وبادر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف، فكففتهم وقلت: هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله، إلاّ بجواب مثله! فأقبلت عليه وقلت: يا هذا، إنَّ المنجمين يزعمون إنَّ نجوم الناس لا تعرف إلاّ بمعرفة مواليدهم. فإنَّ ظفرنا بمن يعرف وقت ميلادهما أخبرك بالطالع. فقال: جزاك الله خيرًا! وانصرف مسرورًا. فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولدهما (1).

من كلامه رحمه الله:

قال الماوردي - رحمه الله -: ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم.

قال الماوردي - رحمه الله -:

وإذا كانـــت النفـــوس كبـــاراً ::: تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

وقال: والداعي إلى استسهال المصاعب وتحمل المشاق أمور منها علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى الهمة وشرف النفس التخصيص، أنفة من خمول الضعة واستنكاراً لمهانة

(1) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال و الحكم، ص299، 303.

النقص.

قال الماوردي - في بيان ما يلزم الإمام من أعمال -: والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل والأمة ممنوعة من زلل.

والثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار، آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه نصًّا واجتهادًا من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة[1].

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين [2].

قال الماوردي: " والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يقتنع بالبُلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه؛ وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك بن دينار: أزهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بُلغته.

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: من رضي بالمقدور قنع بالميسور.

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سُنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، فأما الرغبة: فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة: فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت.

قال الماوردي: " فينبغي لطالب العلم ألا يني في طلبه، وينتهز الفرصة به، فربما شحّ الزمان بما سمع، وضنّ بما منح، ويبتدئ من العلم بأوله، ويأتيه من مدخله، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرّ الجهل به فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله، فإن لكلّ علم فضولاً مذهلة وشروراً مشغلة، متى صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها ".

(1) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص 17، 16.
(2) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 16 / 209.

قال الماوردي: " واعلم أن لكلّ مطلوب باعثاً، والباعث على المطلوب شيئان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً وراهباً، أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدّتا إلى كنه العلم " [1].

* * *

(1) أدب الدنيا والدين، ص54.